سيميائية التحولات النصية في تفسير أبي السعود

د.احمد محمد احمد سلامة
جامعة تكريت /كلية تربية سامراء

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على قائد الغر المحجلين سيدنا مُحَمَّد سيد البشر ، والشفيع المشفع في المحشر ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

ففي كل يوم يكتشف الباحثون وسائل جديدة لدراسة النصوص وجلاء ما فيها من مضامين ، ومن هذه الوسائل الدراسات السيميائية التي تسعى لتعرف مكان الإبداع في النص ، وهي من المصطلحات التي استخدمت في مجالات كثيرة منذ وقت مبكر ، ولاسيما في مجال اللسانيات .

ومن المعلوم أن أعظم النصوص التي بين أيدينا وأرقاها قاطبة هو القرآن الكريم ، وما ارتبط به من علوم يأتي في مقدمتها تفسير القرآن الكريم .

ورغبة من الباحث بتطبيق هذا الأسلوب على تفسير القرآن الكريم لمعرفة المجالات التي يمكن أن تقدمها مثل هذه الدراسات من أجل استجلاء النص القرآني ، ومدى النفع المتحقق منها ، ارتأيت تطبيق هذا على تفسير العلامة أبي السعود المعروف بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لما لهذا التفسير من أسلوب أدبي رفيع ، ولغة رصينة مميزة ، وحاولت الكشف عن التحولات النصية في الخطاب القرآني في هذا التفسير ، فكان هذا البحث الذي أسميته (**سيميائية التحولات النصية في تفسير أبي السعود**) .

وقد قسمته على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة :

عرفت في المبحث الأول السيميائية بإيجاز ، بالقدر الذي تتوضح فيه فكرتها للقارئ.

وفي المبحث الثاني تناولت تطبيقات التحولات النصية في لفظة (الشجرة) في قصة آدم ــ عليه السلام ــ .

وفي المبحث الثالث تناولت تطبيقات التحولات النصية في لفظة (القميص) الواردة في سورة يوسف ــ عليه السلام ــ .

وختمت البحث بخاتمة بينت فيها أهم النتائج والتوصيات .

آملاً أن أكون قد وفقت في إجراء التطبيقات السيميائية على النص القرآني

المبحث الأول
تعريف السيميائية لغة واصطلاحاً

تعريف السيميائية

أولاً ـ السيميائية لغة :

ورد لفظ (السيميائية) في معجمات اللغة وهو يدل على معنيين :

الأول ــ بمعنى العلامة ، قال ابن منظور : " والسُّومَةُ والسِّيمةُ والسِّيماء والسِّيمِياءُ العلامة ، وسَوَّمَ الفرسَ جعل عليه السِّيمة " ، وقوله عز وجل : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [٢] بعلامة يعلم بها أنها ليست من حجارة الدنيا. وقال : " والأصل في سيما وسْمى فحوّلت الواو من موضع الفاء فوضعت في موضع العين كما قالوا ما أَطْيَبَهُ وأَيْطَبَه فصار سِوْمى ، وجعلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها[٣].[٤]

وأصل السيمياء : العلامة التي يعلمون بها أنفسهم في الحرب[٤] .

وورد هذا اللفظ في التنزيل العزيز ، وفسره اللغويون والمفسرون على أنه العلامة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ [٥]

قالوا : الخيل المُسَوَّمة هي التي عليها السِّيما والسُّومةُ وهي العلامة[٦] .

وقال تعالى : ﴿ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [٧] أَراد مُعَلَّمين[٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [٩] ، أي : بعلامتهم[١٠] .

الثاني ــ بمعنى الصنعة ، وهو السحر و حاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس[١١] .

والسيميائية مشتقه من المصطلح (السيمانتيك) وهو بدوره مشتق من الأصل اليوناني (سيميو) الذي يعني العلامة[١٢] .

وبهذا تشترك اللغة العربية مع اللغة اليونانية في معنى اللفظة .

ثانياً ـ السيميائية اصطلاحاً:

تعرف السيميائية بأنها " لعبة التفكيك والتركيب ، وتحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية المتمظهرة فونولوجياً ودلالياً " . وهذا التعريف هو الأصح والأصدق للعلامة على الرغم من تشتت المفهوم بين الباحثين والعلماء في هذا المجال ، إلا أن الإجماع بين التراث والمعاصرة على أن السيميائية هي في حقيقتها دراسة واستحصال للدلالة الغائبة واستدعائها إلى حضيرة الإمكان والوجود بالمرور على التمظهر الشكلي للنص ، والذي غالباً ما يكون مشفراً ملغزاً وهو يمثل الدال ، أما الدلالة الغائبة خلف التمظهر الشكلي ، فتمثل المدلول المطلوب حضوره واسترداده[١٣] .

إن هذا النص يبين أن الدراسة السيميائية ترتكز على وجود العلامة داخل النص والعلامة ما هي إلا تلميحات إشارية إلى تفصيلات قد أضمرت كلياً ، وإنما الذي يعيدها كلها أو جزءاً منها هو التواصل والخبرات السابقة .

ومصطلح (السيمياء) يرادف مصطلح (الدلالة) ، وقد بحث اللغويون العرب القدامى هذا المنهج في جهودهم الدلالية ، وبرز هذا التوجه في كتب غريب القرآن، ومجاز القرآن ، وكتب الوجوه والنظائر(١٤) .

ولو شئنا اختيار تعريف موجز للسيميائية ، فهو : " مصطلح يقصد به البحث في معاني الكلمات ونشأتها وتطورها والآثار اللغويّة المترتبة على ذلك "(١٥) .

ولتوضيح الفكرة أذكر أن أقصر تعريف للسيميائية هو " دراسة الإشارات " ، وأن الإشارات تشمل الكلمات والأصوات ولغة الجسد واللوحات والنصوص وكل ما ينوب عن شيء آخر ، وأي شيء يمكن أن يصبح إشارة ، شرط أن يعني أمراً ، أي : يحيل إلى شيء آخر أو ينوب عنه . وفي مجال التطبيق هناك أنموذجان : أحدهما يسمى نموذج سوسير(١٦) السيميائي ، وهو يحدد الإشارة بأنها تتكون من دال و مدلول ، كلاهما نفسي محض ، وتسمى العلاقة بين الدال والمدلول بالدلالة .

مثال على هذا النموذج : كلمة ادفع على باب محل ، كلمة ادفع هي الدال ، أما المدلول فهو المفهوم الذي تولده هذا الكلمة : بمعنى أن المحل مفتوح للبيع والشراء وليس مغلقاً . أما الآخر فهو نموذج بيرس(١٧) فهو يتكون من ثلاث : من الشكل الذي تتخذه الإشارة ، ويسمى بالمُمثل ، والمعنى الذي تحدثه الإشارة ، ويسمى بتأويل الإشارة ، والمرجع إليه ، ويسمى بالموجودة(١٨) .

المبحث الثاني

تطبيقات التحولات النصية

في لفظة (الشجرة) في قصة آدم ـ عليه السلام ـ

تطبيقات التحولات النصية
في لفظة (الشجرة) في قصة آدم ـ عليه السلام ـ

من التطبيقات التي تكشف موقع العلامة أو الإشارة في الخطاب القرآني ، والتي كان لها حضور كبير داخل النص ودخلت في علاقات داخل السياق وتميزت بتحولها الدائم إلى مدلولات متعددة ، قصة ادم ــ عليه السلام ــ مع بؤرة الاختبار (الشجرة) التي نهي عن الأكل منها وفي ورودها أكثر من مرة لوحظ وجود تحولات نصية يجب الوقوف عندها والتحري الدقيق للمعاني المنضوية خلف النص الشكلي في ضوء تفسير أبي السعود ــ رحمه الله ــ .

قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ (٢٠) .

وقال تعالى : ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (٢١) .

إن هذه الآيات تحذير من إغواء الشيطان الرجيم بعد الاختبار الأول للمخلوقات ، والأمر بالسجود لخليفة الله في الأرض ، إذ كشف هذا الاختبار أبعاد العلاقة المستقبلية بين آدم ــ عليه السلام ــ وبين إبليس ، إلا أن الاختبار الثاني المتمثل بالشجرة كشف أبعاد النفس الإنسانية ونوازعها .

ومن تحري العناصر المتحولة داخل النص القرآني في ضوء تفسير أبي السعود ، نجد أن الإشارة للشجرة قبل الأكل منها كان باسم الإشارة (هذه) ؛ يقول أبو السعود : " (هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ) نصب على أنه بدل من اسم الإشارة ، أو نعت له بتأويلها بمشتق ، أي : هذه الحاضرة من الشجرة ، أي : لا تأكلا منها ، وإنما علق النهي بالقربان منها مبالغة في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه "(٢٢) .

فقد أكد أبو السعود على المعنى المستفاد من اسم الإشارة (هذه) بقوله : (هذه الحاضرة من **الشجرة**) وبقوله : (بالقربان منها) .

وفي سورة الأعراف نجد أن هنالك تحولاً مقصوداً في استبدال اسم الإشارة إلى (تلك) فنلاحظ أن استبدال بنية الإشارة وقع بعد فعل الأكل .

يقول أبو السعود : " (عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ) ما في اسم الإشارة من معنى البعد لما أنه إشارة إلى **الشجرة** التي نهى عن قربانها "(٢٣) .

وهذا التحول الشكلي على مستوى النص يشف عن دلالة غائبة لهذا التحول ، فاسم الإشارة (هذه) للإشارة للقريب يدل على الوجود الفعلي لآدم وحواء في الجنة ، والاستمتاع بالنعيم والإقامة ، فهي تشير إلى استمرارية مكانية قبل فعل الأكل ، وتؤكد الوجود الحقيقي للجنة بوصفها مكاناً واقعياً حقيقياً .

واستبدال هذه البنية ببنية مغايرة (تلك) بعد فعل الأكل يدل على مفارقة مكانية ، وفيه إشارة تمهيدية واستباق إشاري لما سيحدث من استبدال وضعي ، والمتمثل بالإهباط من الجنة والإبعاد عنها مكانة ومنزلة.

وقد كان التعبير عن المفارقة المكانية مع تدني المنزلة بقوله تعالى:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢٤) ، قال أبو السعود : الخطاب لآدم وحواء ـــ عليهما السلام ـــ والهبوط إلى موضع استقرار (٢٥) .

ثم بين ارتباط المفارقة المكانية مع سمو المنزلة المتحققة بقبول التوبة في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٦) ،

وقد عبر أبو السعود عن هذا التحول النصي بقوله : " (ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ) كرر الأمر بالهبوط إيذاناً بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة ، ودفعاً لما عسى يقع في أمنيته ـــ عليه السلام ـــ من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك وإظهار لنوع رأفة به ـــ عليه السلام ـــ لما بين الأمرين من الفرق النير ، كيف لا والأول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها ، والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدي إلى النجاة والنجاح "(٢٧) .

ثم قال : " وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه بالردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين ، فكيف بالمقترن بهما فتأمل "(٢٨) .

فالعلامات الإشارية (هذه – تلك) رسمت عدة ثنائيات على مستوى النص الغائب :

القريب – البعيد . الأعلى – الأسفل .

وهذه الثنائيات لأسماء الإشارة وتحولاتها تصب في ثنائية أخرى تجلت في (الحضور – الغياب) .

ويتوالى الترابط المكاني القيام على فهم إشارة (الشجرة) عند أبي السعود ، فيقول :

" قوله لهما : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (٢٩) ، وقوله : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾(٣٠) ومقاسمته لهما ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(٣١) ، وهذه الآيات مشعرة بأنه ـــ عليه السلام ـــ لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض إلى حين البعث إليه "(٣٢) .

فالتحول النصي هنا تمثل بارتباط الإشارة (الشجرة) بنعت الخلود **فشجرة الخلد** هي " شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً ، سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكاً لقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾(٣٣) (٣٤) .

فالشجرة تحولت في تصور آدم ـــ عليه السلام ـــ من كونها شجرة عادية سواء أكانت شجرة حنطة أو عنب أو تين(٣٥) إلى شجرة ذات ميزات وخصائص تمنح الخلود ، مع أن الشجرة هي هي لم يتغير منها شيء سوى المضمون المرتبط في التصور أو الذهن ، وهو ما يعبر عنه بالمدلول ، أو بتأويل الإشارة . فقد جرى التحول في ظل ثنائية :

شجرة حنطة أو عنب أو تين

الدال

شجرة الخلد

المبحث الثالث

تطبيقات التحولات النصية

في لفظة (القميص) في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ

تطبيقات التحولات النصية

في لفظة (القميص) في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ

تظهر الثنائية وتحولاتها النصية في مواضع عديدة في القرآن الكريم ، ومنها القميص في قصة يوسف ــ عليه السلام ــ إذ تكرر ذكره في السورة ثلاث مرات .

إن قميص يوسف ــ عليه السلام ــ كانت له سيميائية عالية في القصة ، إذ جسد الحضور الأول دلالة الغياب ، والثاني دلالة البراءة ، والثالث دلالة الحضور والوجود .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣٧) .

وقال تعالى : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٣٨) .

ففي وجود القميص الذي غدا علامة وشفرة داخل النص المرتبط بوجود الدم والكذب في التمظهر الشكلي أو البنية السطحية للخطاب دال على القتل والإجرام في البنية العميقة ، وكل هذه البنى تدل على غياب الشخصية (يوسف) ولكن يعقوب عليه السلام اهتدى إلى فك شفرة هذه العلامة الكاذبة والدم المكذوب ، قال تعالى ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

قال أبو السعود في وصف القميص : " أو بمعنى ذي كذب ، أي ملابس لكذب "(٣٩) .

أما القميص في حضوره الثاني على مستوى القصة ، فكان وحدة سيميائية دالة على البراءة بعد ما حاولت امرأة العزيز قلب دلالة الحدث ، قال أبو السعود في بيان وجه الاستدلال بالقميص على توجيه الاتهام ليوسف ــ عليه السلام ــ : " وهي وإن لم تصرح بأنه ـــ عليه السلام ــ أراد بها سوءاً ، إلا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند إليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار ، فإنهم كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه ، وبذلك الاعتبار يعترضان للإنشاءات "(٤٠) .

ثم ينتقل إلى كشف المضمون الإشاري للقميص بوصفه دليل براءة لكونه أقرب إلى الوقوع ، وأدل على المطلوب ، لأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هي عليه ، إما مشاهدة أو إخباراً ، فهو إخبار بكذبها وصدقه ـــ عليه السلام ـــ ؛ وتعليق صدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل ، فيكون محالاً لا محالة ، ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه ــ عليه السلام ــ بأمر محقق الوجود ، وهو القد من دبر فيكون محقق البتة[٤١] .

ويشير أبو السعود إلى المعنى الذي تحدثه الإشارة المعبر عنها بـ(تأويل الإشارة) بقوله : " (فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ) كأنه لم يكن رأى ذلك بعد ، أو لم يتدبره ، فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال (قَالَ إِنَّهُۥ) أي : الأمر الذي وقع فيه التشاجر ، وهو عبارة عن إرادة السوء التي أسندت إلى يوسف وتدبير عقوبته بقولها : (مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا) إلى آخره ؛ لكن لا من حيث صدور تلك الإرادة والإسناد عنها ، بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو "[٤٢] .

وأخيراً جاء القميص في حضوره الثالث ليجسد سيميائية الحضور ليوسف ــ عليه السلام ــ إذ أصبح المؤثر الذي أبهج يعقوب ــ عليه السلام ــ ، فبين القميص الأول رمز الادعاء بالغياب الوجودي المكذوب تتجلى هذه الوحدة السيميائية في خاتمة القصة لإثبات يقينية الوجود الفعلي.

فالقميص صار هنا بشيراً يقول أبو السعود : " (أَلْقَىٰهُ) ، أي : ألقى البشير القميص "[٤٣] .

وقال أبو السعود كاشفاً هذه التحولات الجارية على إشارات القميص في النص على عمومه بقوله : " كان في قميص يوسف ــ عليه السلام ـــ ثلاث آيات : كان دليلاً ليعقوب على كذبهم ، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، ودليلا على براءة يوسف ـــ عليه السلام ـــ حين قد من دبر "[٤٤] .

هذه الإشارات دالة على الوحدات السيميائية الموجودة في الخطاب القرآني ، نصاً ، وفي التفسير القرآني الذي كشف ثنائيات هذه التحولات .

الخاتمة

الحمد لله حق حمده ، والصلاة والسلام على خير خلقه ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .بعد هذا العرض الموجز لسيمائية التحولات النصية في تفسير أبي السعود ، أوجز أهم ما جاء فيه بما يأتي :إمكانية تطبيق الدراسات الدلالية الحديثة على الخطاب القرآني ، وعلى جهود المفسرين ، إذ كشف هذا البحث عن دلالات جديدة مستقاة من المناهج الحديثة ، وأن المفسرين المسلمين سبقوا الغرب في التوصل إلى دلالات النص القرآني وإيحاءاته بوسائلهم ومناهجهم الخاصة .إن النص القرآني نص ثري بتحولاته وإيماءاته ودلالاته ، وقد نجح المفسرون (أبو السعود أنموذجاً) في الكشف عن الدلالات التي توحيها المفردة القرآنية

.يرى الباحث أهمية التوسع في هذه الدراسات لتشمل ميادين بحثية أوسع سواء على صعيد السور أو على صعيد المفسرين .والله من وراء القصدوصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله صحبه وسلموآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش

(١) سورة الذاريات : الآيتان ٣٣ ــ ٣٤.

(٢) سورة هود : الآيتان ٨٢ ــ ٨٣ .

(٣) ينظر : **لِسَان العَرَب** ، لأبي الْفَضْل جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، (ت٧١١هـ) ، دار صادر ، بَيْرُوْت ، لَبْنَان ، ط١ ، ١٩٦٨م : مادة (سوم) ٣١٤/١٢.

(٤) ينظر : **جمهرة اللغة** ، لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري بن دريد ، (ت٣٢١هـ) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٤٥هـ : مادة (سمي) ٤٤٨/٣ .

(٥) سورة آل عمران : من الآية ١٤ .

(٦) ينظر : **الصِّحَاح تَاج اللُّغَة وصحاح العَرَبِيّة** ، لإسماعيل بن حماد الجوهري ، (ت٣٩٣هـ) ، تحقيق : أَحْمَد عبد الغَفُوْر عطار ، دار العلم للملايين ، بَيْرُوْت ، لَبْنَان ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧م : مادة (سوم) ١٩٥٥/٥ ، و **الْمُحِيط فِي اللُّغَة** ، لكافي الكفاءة الصاحب إسماعيل بن عباد ، (ت٣٨٥ هـ) ، تحقيق : مُحَمَّد حسن آل ياسين ، دار الحرية للطباعة ، بَغْدَاد ، ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م : مادة (سوم) ٣٢١/٣ ، **ولسان العرب** : مادة (سوم) ٣١٤/١٢ ، **وجَامِع الْبَيَان عن تأويل آي الْقُرْآن** المعروف بـ(تَفْسِيْر الطَّبَري) ، لأبي جعفر مُحَمَّد بن جَرِير بن يزَيْد بن خالد بن كثير بن غالب الآملي الطَّبَري، (ت٣١٠هـ) ، تحقيق : محمود مُحَمَّد شاكر وأحمد مُحَمَّد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، مصر ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠م : ٢٥٣/٦ ، **وتفسير ابن المنذر** ، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ، (ت٣١٨هـ) ، قدم له تحقيق : الدكتور سعد بن محمد السعد ، دار المآثر ، المدينة النبوية ، بلا تاريخ : ١٤٢/١ ، **والكَشْف والْبَيَان** ، لإبي إسحاق أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ، (ت٤٢٧ هـ) ، تحقيق : الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق : الأستاذ نظير الساعدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠٢م : ٢٥/٣ .

(٧) سورة آل عمران : من الآية ١٢٥ .

(٨) ينظر : **تهذيب اللغة** ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، (ت٣٧٠ هـ) ، تحقيق : أحمد عبدالعليم البردوني ، مراجعة : علي محمد البجاوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، مصر ، بلا تاريخ : مادة (سوم) ٣١٤/١٢ ، **و المُفْرَدَات فِي غَرِيب الْقُرْآن** ، لأبي القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني ، (ت٥٠٢هـ) ، دار القلم ، دمشق ، بلا تاريخ : ٨٧/٢ ، **ولسان العرب** : مادة (سوم) ٣١٤/١٢ ، **و تفسير سفيان الثوري** ، لأبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، (ت١٦١ هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ : ٨٠ ، **وجامع البيان** : ١٨٧/٧، **وتفسير ابن المنذر** : ٣٦٩/١.

(٩) سورة البقرة : من الآية ٢٧٣.

(١٠) **تهذيب اللغة** : مادة (سوم) ١٢٢/١٣ ، **ولسان العرب** : مادة (سوم) ٣١٤/١٢ ، **وجامع البيان** : ٥٩٤/٥ ، **و الوَجِيْز فِي تَفْسِيْر الكِتَاب الْعَزِيز** ، لأبي الْحَسَن علي بن أَحْمَد الواحدي ، (ت٤٦٨هـ) ، تحقيق : فوان عدنان

داوودي ، دار القلم بيروت ، والدار الشامية بدمشق ، ط١ ، ١٤١٥ هـ : ٧٥/١ ، **و مَعَالِم التَّنْزِيل** المعروف بـ(تَفْسِيْر البغوي) ، لأبي مُحَمَّد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت٥١٦هـ) ، تحقيق : خالد العك ، ومروان سوار ، دار المَعْرِفَة ، بَيْرُوْت ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م : ٣٣٨/١.

(١١) جَامِع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقب بدستور الْعُلَمَاء ، للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدنكري ، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م : ٢٠١/٢ ، **و الْمُعْجَم الوَسِيْط** ، قام بإخراجه : إبْرَاهِيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومُحَمَّد علي النجار ، دار الدعوة ، تركيا ، ط٣ ، ١٩٨٩م : ٩٧٣/١.

(١٢) ينظر : السيميائية اتجاهات وأبعاد ، إبراهيم صدق ، محاضرات الملتقى الوطني الأول السيمياء والنص الأدبي ، فيفري ، الجزائر ، ٢٠٠٧م : ٧٧ ، ونظريات السرد وموضوعها في المصطلح السردي، سعيد يقطين، مجلة علامات ، مكناس ، ع ٦ سنة ١٩٩٦ : ٩٣ .

(١٣) ينظر : السيمائية ، جميل حمداوي ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد ٢٥ ، العدد ٣ ، سنة ١٩٩٧ : ٧٩ .

(١٤) ينظر : السيميائية أصولها ومناهجها ومصطلحاتها ، د . سعدية موسى عمر البشير ، ورقة علمية مقدمة إلى جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا ، كلية اللغات ، بلا تاريخ : ٧ .

(١٥) المعجم الفلسفي ، للدكتور جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧١م : ٢٥٦ .

(١٦) هو فرديناند دي سوسير ، عالم لغوي سويسري ورائد علم اللغة الحديث. ولد سوسير في جنيف سنة (١٨٥٧) ، وهو ينتمي لعائلة عرفت بعطائها العلمي في مجال العلوم الطبيعية . كان أول من أعتبر اللسانيات كفرع من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية أقترح دي سوسير تسميته *semiology* ويعرف حاليا بالسيميوتيك أو علم الإشارات . توفي سنة (١٩١٣م) . الموسوعة العربية العالمية ، مجموعة مؤلفين ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، بلا تاريخ : ٤٩٦/٥٣.

(١٧) هو تشارلز ساندرز بيرس ، فيلسوف براغماتي أمريكي ، ولد سنة (١٨٣٩م) . فيلسوف أمريكي ، كان له دور في نشر الفلسفة الذرائعية. وكان من الرواد الذين طوروا المنطق الرياضي. كما ساعد في تطوير دراسات الرموز أو السيميائية ، وهي تُعنى بالدلالات الرمزية للعلامات ، بالإضافة إلى الكلمات . توفي سنة (١٩١٤م) . الموسوعة العربية : ١٦٠/٤٢.

(١٨) ينظر : أسس السيميائية ، دانيال تشاندلر، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، بلا تاريخ : ص ٢٠ ـ ٣٥ .

(١٩) سورة البقرة : الآية ٣٥ .

(٢٠) سورة الأعراف : الآيات ١٩ ـ ٢٢ .

(٢١) سورة طه : الآيتان ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٢٢) إِرْشَاد الْعَقْلِ السَّلِيمِ إلى مزايا الْقُرْآن الكريم . لأبي السعود مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمادي ، (ت٩٨٢هـ) ، دار إِحْيَاء التُرَاث العَرَبِيّ ، بَيْرُوْت ، بلا تاريخ : ٩١/١ .

(٢٣) المصدر نفسه : ٢٢١/٣ .

(٢٤) سورة البقرة : الآية ٣٦ .

(٢٥) إرشاد العقل السليم : ٩٢/١.

(٢٦) سورة البقرة : الآية ٣٨ .

(٢٧) إرشاد العقل السليم : ٩٢/١.

(٢٨) المصدر نفسه : ٩٢/١.
(٢٩) سورة طه : من الآية ١٢٠.
(٣٠) سورة الأعراف : من الآية ٢٠ .
(٣١) سورة الأعراف : من الآية ٢١ .
(٣٢) إرشاد العقل السليم : ٩١/١.
(٣٣) سورة الأعراف : من الآية ٢٠ .
(٣٤) إرشاد العقل السليم : ٤٧/٦ .
(٣٥) المصدر نفسه : ٩١/١.
(٣٦) سورة يوسف : الآيتان ١٧ ــ ١٨ .
(٣٧) سورة يوسف : الآيات ٢٥ ــ ٢٨ .
(٣٨) سورة يوسف : الآيات ٩٣ ــ ٩٦ .
(٣٩) إرشاد العقل السليم : ٢٦٠/٤.
(٤٠) المصدر نفسه : ٢٦٠/٤.
(٤١) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٢٦٠/٤.
(٤٢) المصدر نفسه: ٢٦٠/٤.
(٤٣) المصدر السابق: ٢٦٠/٤.
(٤٤) إرشاد العقل السليم : ٢٦٠/٤.

المراجع

بعد القرآن الكريم

١. إِرْشَاد الْعَقْلِ السَّلِيمِ إلى مزايا الْقُرْآن الكريم . لأبي السعود مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمادي ، (ت٩٨٢هـ) ، دار إِحْيَاء التُرَاث العَرَبِيّ ، بَيْرُوْت بلا تاريخ .
٢. أسس السيميائية ، دانيال تشاندلر، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، بلا تاريخ .
٣. تفسير ابن المنذر ، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ، (ت٣١٨هـ) ، قدم له تحقيق : الدكتور سعد بن محمد السعد ، دار المآثر ، المدينة النبوية ، بلا تاريخ .
٤. تفسير سفيان الثوري ، لأبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، (ت١٦١ هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .
٥. تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق : أحمد عبدالعليم البردوني ، مراجعة : علي محمد البجاوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، مصر ، بلا تاريخ .
٦. جَامِع الْبَيَان عن تأويل آي الْقُرْآن المعروف بـ(تَفْسِيْر الطَّبَري) ، لأبي جعفر مُحَمَّد بن جَرِير بن يزَيْد بن خالد بن كثير بن غالب الآملي الطَّبَري، (ت٣١٠هـ) ، تحقيق : محمود مُحَمَّد شاكر وأحمد مُحَمَّد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، مصر ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠م

٧. جَامِع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقب بدستور الْعُلَمَاء ، للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدنكري ، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١ هـ ــ ٢٠٠٠م .

٨. جمهرة اللغة ، لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري بن دريد (ت٣٢١هـ) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٥هـ .

٩. السيمائية ، جميل حمداوي ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد ٢٥ ، العدد ٣ ، سنة ١٩٩٧ .

١٠. السيميائية اتجاهات وأبعاد ، إبراهيم صدق ، محاضرات الملتقى الوطني الأول السيمياء والنص الأدبي ، فيفري ، الجزائر ، ٢٠٠٧م .

١١. السيميائية أصولها ومناهجها و مصطلحاتها ، د . سعدية موسى عمر البشير ، ورقة علمية مقدمة إلى جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا كلية اللغات ، بلا تاريخ .

١٢. الصِّحَاح تَاج اللُّغَة وصحاح العَرَبِيّة ، لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ) ، تحقيق : أَحْمَد عبد الغَفُوْر عطار ، دار العلم للملايين ، بَيْرُوْت ، لَبْنَان ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧م .

١٣. الكَشْف والْبَيَان ، لإبي إسحاق أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ، (ت٤٢٧ هـ) ، تحقيق : الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور مراجعة وتدقيق : الأستاذ نظير الساعدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠٢م .

١٤. لِسَان العَرَب ، لأبي الْفَضْل جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، (ت٧١١هـ) ، دار صادر ، بَيْرُوْت ، لَبْنَان ، ط١ ، ١٩٦٨م .

١٥. الْمُحِيط فِي اللُّغَة ، لكافي الكفاءة الصاحب إسماعيل بن عباد ، (ت٣٨٥ هـ) ، تحقيق : مُحَمَّد حسن آل ياسين ، دار الحرية للطباعة ، بَغْدَاد ، ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م .

١٦. مَعَالِم التَّنْزِيل المعروف بـ(تَفْسِيْر البغوي) ، لأبي مُحَمَّد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت٥١٦هـ) ، تحقيق : خالد العك ، ومروان سوار ، دار المَعْرِفَة ، بَيْرُوْت ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م .

١٧. المعجم الفلسفي ، للدكتور جميل صلبيا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧١م .

١٨. الْمُعْجَم الوَسِيْط ، قام بإخراجه : إبْرَاهِيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومُحَمَّد علي النجار ، دار الدعوة ، تركيا ، ط٣ ، ١٩٨٩م .

١٩. المُفْرَدَات فِي غَرِيب الْقُرْآن ، لأبي القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني ، (ت٥٠٢هـ) ، دار القلم ، دمشق بلا تاريخ .

٢٠. الموسوعة العربية العالمية ، مجموعة مؤلفين ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، بلا تاريخ .

٢١. نظريات السرد وموضوعها في المصطلح السردي، سعيد يقطين، مجلة علامات ، مكناس ، ع ٦ سنة ١٩٩٦ .

٢٢. الوَجِيْز فِي تَفْسِيْر الكِتَاب الْعَزِيز ، لأبي الْحَسَن علي بن أَحْمَد الواحدي ، (ت٤٦٨هـ) ، تحقيق : فوان عدنان داوودي ، دار القلم بيروت ، والدار الشامية بدمشق ، ط١ ، ١٤١٥ هـ .